سمات رئيسية لشعر فيض الحسن السهارنفوري

د. شاد حسين*

عاصر الشاعر العالم فيض الحسن السهارنفوري (١٨١٦-١٨٨٧م) الشاعر الأردي الكبير أسد الله خان غالب (١٧٩٧م-١٨٦٩م) وكان لصدر الدين أزرده الكشميري فضل كبير في توجيههما. قرض فيض الحسن الشعر في اللغة العربية والفارسية والأردية كما قرض غالب الشعر في الفارسية والأردية. لم ينل شعر غالب الفارسي رواجا رغم أنّه كن يوليه أكبر عناية، غير أن شعر السهارنفوري نال استتحسانا عند الدوائر المعنية باللغة العربية إلى حدّ كبير. ربما كان هذا بسبب أن أهالي شبه القارة يرون اللغة العربية بعين الإكبار. وكان فيض الحسن السهارنفوري من الشعراء القلائل في شبه القارة الذين خلّفوا ديوانا في الشعر العربي مثل أستاذه فضل الحق الخيرآبادي وربّماهو الذي أصبح قدوة لفيض الحسن في قرض الشعر بالعردبية. لم ينل شعره بالأردية أي اهتمام حتى أصبح هذا الشعر نسيا منسيا وعلى العكس نال شعر غالب الأردي رواجا كبيرا في شبه القارة حتى يعتير أكبر شعراء الأردية وهذا لأنّ شعره كان تعبيرا عن عواطفه الصادقة متدفقة عن صميم القلب. .

كان لفيض الحسن باع كبير في العربية ولم يجاريه أحد من أبناء وطنه في هذا المجال وقد أصبح مرجعا لطلاب اللغة العربية في شبه القارة أمثال شلي النعماني وعبد الحميد الفراهي وإسماعيل الميرتي، ومحمد عرفان الطوكي. وقد شهد لفضله من قام بسجل مفاخر أهل الهند في العلوم والفنون فيقول

* الأستاذ المشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

صاحب نزهة الخواطر: "كان من أعاجيب الزمان ذكاء وفطانة وعلما"(١) ويقول سيّد سليمان الندوي: "لم تنجب الهند مثله إماما من أئمة الأدب منذ قرون"(٢)

وله فضل الريادة في الصحافة العربية في الهند فقد أصدر مجلّة شفا الصدور عام ١٨٧٠ من الكلية الشرقية بلاهور التي كان يرأسها فقد ظلت هذه المجلة تصدر شهريا مدة سبعة عشر عاما إلى عام ١٨٧٨م وقد تُوفي الشيخ في نفس العام.

كان الشيخ عالما دينيا فله مصنفات قيّمة حول الحديث النبوي والتفسير مثل تعليقات على جلالين وشرح حديث أم زرع، وشواهد التفسير المعروف بحل أبيات البيضاوي، حاشيه على مشكوة المصابيح.

وله نظر فاحص في الشعر العربي القديم وخير دليل لهذا أنه قام بتعليق دواوين الشعر العربي الشهيرين فقد شرح المعلقات السبع وقد الفه باللغة الفارسية والأردية وسمّاه رياض الفيض وقام بتحشية ديوان الحماسة لأبي تمام وله شرح لديوان حسان بن ثابت الأنصاري. وأما نطاق هذه المقالة فيضيق لإحصاء مساهماته الجليلة في الثقافة العربية فهممت أن أحصر كلامي على شعره العربي وسماته المهمة.

ولفيض الحسن ديوان يحوي ست وستين قصيدة. وصدرت الطبعة الأولى له عام ١٩١٥م من مطبعة أختر دكن بمدينة حيدر آباد تحت رعاية الشيخ حميد الدين الفراهي. وقد صدر هذا الديوان أيضا من المجمع العلمي الباكستاني بالكلية الشرقية من جامعة بنجاب بلاهور عام ١٩٩٥م وحقّقه وشرّح غوامضه الأستاذ ظهور أحمد أظهر وقد استهلّه بمقدمة مستفيضة، وقام الدكتور أورنغ زيب الندوي بإحصاء زُلل الأستاذ ظهور أظهر في مقالته " ديوان الفيض بتحقيق: د. ظهور أحمد أظهر (دراسة ونقد)٣

كان الشيخ السهارنبوري من الشعراء المكثرين في اللغة العربية. وهو على

المستوى الرفيع رغم هذا الإكثار ولا توجد فيه عيوب العجمة التي تكثر في أشعار الهنود العربية وفيما يلي أهم سمات الشعر التي ترفع شأن صاحبه.

تنوع أغراض الشعر:

ربما لا أخطئ في قولي أنّ التنوع في أغراض الشعر عند فيض الحسن لا يوجد نظيره عند شعراء العربية في شبه القارة الهندية فهذه الأغراض تتنوع عنده بين المدح والرثاء والهجاء والفخر والغزل. اعتقد أن الشاعر العربي الهندي المكثر غلام على آزاد البلكرامي دونه في اختيار الأغراض الشعرية المتداولة عند العرب القدماء. ومن بواعث الدهشة عن الشاعر فيض الحسن تعبيره العربي الفصيح فكأنه من صميم العرب. فالمدح من أهم الأغراض التي لم يهتم به الشعراء الهنود. غير أن فيض الحسن يمدح عاهل الدولة العثمانية ويثنى عليه بمناقبه الكثيرة في قصائد عديد فمثلا يقول(٤)

حـــامي الـــذمار حمـــى الأنـــف ذي أنـــف
طلـــق اليـــدين طويـــل البـــاع ســـواق
شـــاكي الصـــلاح إلـــى الرايـــات مبتـــدر
صـــدق اللقـــاء إلـــى الغابـــات ســـباق
مـــن آل عثمـــان ســـامي الطـــرف مبتســـم
إلـــى الطعـــان شـــديد البـــأس مشـــتاق

إن شعر الفخر والهجاء يندر عند شعراء شبه القارة الهندية غير أنّ فيض الحسن توجد عنده هذين غرضين فمثلا يقول مفتخراً على انتماءه إلى قبيلة قريش:(٥)

فـــإن ارتبـــت فاســـئلي عـــن خصـــالي
دار قـــوم لبثـــت فـــيهم مليـــا
تجـــديني أغـــر بـــيض كـــرام
هيّنـــا ليّنـــا، جموجـــا أبيـــا

ويقول هجاء لأهل بلدة لبث فيهم مدة فلم يجد لهم كرامة:(٦)

بلـــــدة لا تـــــرى فيهـــــا فتـــــى كملـــــت
جيرانـــــــه وجليســـــــا نـــــاعم البـــــال
بلـــــدة قـــــد خلـــــت عـــــن كـــــل مكرمـــــة
وهـــــل ســـــمعتم بمصـــــر فـــــارغ خـــــال

سمات مدائحه النبوية كغرض منشود

من أهم الأغراض التي كرسّها الشاعر المديح النبوي وهو صفوة شعره فهو صاحب طراز خاص في هذا المجال ويحوى ديوانه ثنتا عشرة قصيدة في المديح النبوي وهي في بحور مختلفة ويجد الشاعر في نظمها مجالا رحبا للتعبير عن عواطفه.

ربما لا أخطئ إذ أقول أنّ فيض الحسن تأثر بالشعراء الفارسية في الغلو في عواطفه فهو يرى النبي بعين التقديس ويرجو منه كما يرجى من عند الله كعادة بعض شعراء الفارسية فعلى سبيل المثال يقول:(٧)

أنت الذي ترتجي يوم بعث ومن نستعين به في الملاحك
ومن نستعيذ به في المرامي ومن نستغيث به في المهالك

وعلى هذا المنوال يلتجى بالنبيّ طالبا أن يمده يده لكي يأخذ بها ولكي ينجو من الشرّ والردي: (٨)

أصدق فيك الظن أنك ناصر لمثلى ومثلى معتدي معتد
أخاف على نفسي وأخشى عقوبتي وأشفق من ضغطى إذا ضاق مرقدي
فخد بيدي أمن على نفسي الردى وأسلم من الشر الشمر وأرشد

ويجد فيض الحسن في مدائحه النبوية فرصة مواتيه لتصوير بعض المناظر التي يرسمها خياله. فيقول:(٩)

إنـي أناديـك إذا خرجـت مـن جـدثي ولا أبـــالي مـــن كثـــرة اللغـــط
أمشـــي إليـــك ولا أبغـــي معاونـــة من راكب العنس أو من فارس الفرط

كما يجد فيها فرصة تقديم بعض مواقفه النفسية فعلى سبيل المثال يفتخر بانتمائه إلى قبيلة أفضل الأنبياء فهو يمزج بين الفخر والمديح النبوي ولعله وجد في شعر حسان بن ثابت نموذجا له بهذا الصدد لأنه كان يمزج في شعره بين الفخر والهجاء والمدح يقول فيض الحسن في إحدى قصائدة في المديح النبيوي: (١٠)

مـــن شـــاء فليفخـــر هنـــا ك، بعمـــــــــه وبخالـــــــــه
فانـــــا الفخـــــور بـــــأنني أنـــــا مـــــن مـــــوالي آلـــــه

وله بعض قصائد يباشر فيها بالمديح النبوي ولم يسلك الطريقة المعتادة وربما يسير فيها على طريقة سنّها العالم الهندي الكبير شاه ولي الله الدهلوي فهو أيضا نظم بعض مدائحه دون أي تشبيب فيستهل فيض الحسن قصيدة له على الطريقة التالية: (١١)

يـا مـن يلوذبـه الكـرام ولا ذو مـا لـي ورا ءك ملجـاء ومـلاذ
لا ينبغي لـك أن تصـيبك زلـة إذ أنـت معصـوم وأنـت معـاذ

ربّما لا نبالغ إذا قلنا أنّ قصائده في المديح النبوي أحسن معرض لقريحيته الشعرية العالية فيرى د. قمر علي زيدي " إن قصائده في المدائح النبوية تعد روائع أضافت الكثير إلى فنّ المديح النبوي الشريف في شبه القارة الهندية"(١٢)، كما اشد د محمد صدر الحسن بذكره في هذا الجال قائلا " مما لاشكّ فيه أنّ فيض الحسن السهارنفوري يحتل مكانة مرموقة بين أصحاب النبويات في الهند"(١٣)

تصوير مواقف الحياة

الانطباع العام الذي يبتدر إلى أذهاننا عند القاء نظرة عابرة على الشعر العربي في شبه القارة الهندية هو أنه شعر المحاكاة وهو شعر القشور لا لبّ فيه، و كان يجدر به أن يكون تصويرا للحياة على حدّ تعبير الناقد الإنجليزي ميثيو

اورنالد، فهذا التصوير مفقود في أكثر الشعر العربي الهندي غير أن فيض الحسن من الشواذ مثل أستاذه فضل الحق الخير آبادي فجعلا شعرهما تصويرا للحياة إلى حدما, فصوّر فضل الحق التوتر السياسي السائد آنذاك وما عاناه على أيدى الأعداء في السجن وأما فيض الحسن فهو أيضا جعل شعره في بعض الأحيان أرصادا لمواقف حياته فعلى سبيل المثال توفّى ابن له في صغر سنه فبكى له بدموع مدرار و رثاله بأشعار تمتلئ بعواطف حزينه صادقة مندفعة فقال: (١٤)

كئبت على أن مات إذ صار لاعبا ... ولم أكتئب لومات إذ كان في المهد
إذا ما تراءى لي صبي شبيهه ... همّت مقلتي من غير جهدو لا كهد
رأيت على أيدي الرجال نعشه ... وقد كنت أرجو أن أراه على نهد
سئمت من الدنيا لما نابني بها ... وإن كان هذا لا يعد من الزهد

أقام فيض الحسن في بلدة مدة فعانى ما عانى من جيرانه فلم يتمالك نفسه فهجاهم وشبّههم بالكلاب والثيران وأحمرة بقوله: (١٥)

بلدة لا ترى فيها فتى كملت ... جيرانه وجليسا ناعم البال
بلدة قد خلت عن كل مكرمة ... وهل سمعتم بمصر فارغ خال
بلدة ما بها مجدو مأثره ... وما بها من كريم النفس مفضال
إلا الكلاب والثيران وأحمرة ... ومن يماثلها من دون أمثال

وقد أعرب عن معاناته أيضا في قصيدته مدح فيها السلطان عبد الحميد ملك الدولة العثمانية بعد الحرب التي كانت قد نشبت بينه وروسيا سنة١٢٩٤للهجرة: (١٦)

حولي كثير من الأعداء و همهم ... قتلي وما لي دون الله من واقي
- - - - - - - - - ... - - - - - - -
إني أخاف على نفسي تألبهم ... علي أشفق منهم كلّ اشفاق

جوانب أسلوبيه أخرى:

يتبين عند دراسة أشعار فيض الحسن أنه لم يكن هناك في عصره أحد أعلم منه باللغة وأساليب العرب فعلى حدّ تعبير الدكتور محمّد صدر الدين" كلامه يشبه كلام الشعراء الأقدمين من العرب الذي لا يوجد فيه لوثة الأعاجم(١٧) فجعل شعره معرضا لإلمامه فلم يذعن للركاكة ولم يهجر متانة التركيب فمعجمه الشعري يشهد بتفوقه في هذا المجال فلننظر إلى بعض شعره:(١٨)

يجـود لنـا مـن ظهـر غيـب فنرتجي كمـا ترتجـى الأم العطـوف فـروخ
يفـوز بمـا يبغـي إذا مـا اسـتعانه وقـد فسـخ العـزم الصـميم الفسـيح
خـذوها وقولـوا رب وسـلّم عليـه مـا أنـاخ العتـاق الناجيـات منـيخ

كان للقاموس القرآني وللتعبير القرآني أثر كبير فيه فعلى سبيل المثال لننظر إلى القصيدة الرابعة والستون من ديوانه فكأنه نظمه وفق موسيقة سورة مريم مستخدما قاموسها فأقدم بعض الأشعار من قصيدته فيقول في فضيلة قلبيه قريش:(١٩)

وقـريش أعـزة كـرام بلغـوا في العلى مكانـا عليـا

ويقول في مدح النبي: (٢٠)

إن مـنهم نبينـا الهاشـمي الأبطحـي المكـرم المرضـيا
الشـفيع المشـفع المسـتغاث المصـرخ المنقـذ الكفـي الوفيـا

ويقول في مدح الصحابي علي بن ابي طالب: (٢١)

وعليـا أخـا النبي الأمـين عـم الصـدق ذا البـر والتقـى النقايـا
رضـي الله عـنهم ورضـوا عنـه جـزاء سـكافيا مرضـيا

كان لفيض الحسن خبرة كبيرة في العروض والقوافي فقد قام بترتيب كتاب السكاكي في العروض. وقد مارس أوزان سهلة مجزونة يندر ممارستها عند

الشعراء الآخرين. ونحسّ بعض الأحيان نوعا من التلاؤم بين العروض العربي والعروض الهندي فالعروض العربي عتادها كمية الأصوات وأما العروض الهندي فهذا يتكئ على كيفية الأصوات فنرى هذا التلاؤم في قصيدته الهائية التي نظمها على بحر الكامل المجزوء. ومن الطريف أيضا يضمن في هذه القصيدة بعض شطرات شهيرة للشيخ سعدي شيرازي الشاعر الفارسي في مدح النبي صلى الله عليه وسلّم فقد كان لشعر سعدي رواجا كبيرا في شبه القارة الهندية

فيقول:(٢٢)

والله أكمـــل ذا النبـــي بجـــــوده ونوالـــــه
واهـــا لـــه مـــن كامـــل بلـــغ العلـــى بكمالـــه
وذي جمـــــال رائـــــق كشـــف الـــدجى بجمالـــه

ويقول: (٢٣)

أكـــرم بـــه مـــن بـــاذل ممـــا لـــه مـــن مالـــه
جـادت يـداه على السـؤا ل، بـــه علـــى ســـواله
فشـــماله كيمينـــه ويمينـــه كشـــماله

ربّما استلهم الشاعر من رباعيات فضل حق الخير آبادي فرباعياته تذدخر بموسيقية خلّابة مثل قوله: (٢٤)

واها لواه مكمد في جنح ليل سرمد
قدبات ليلة أرمد يلقى القذى من إثمد
ياويله يا ويله يشكو الزمان و ميله
ويقول يشكو ليله يا ليل هل لك من غد

وقد استخدم فضل حق الخير آبادي شتى الأوزان والقوافي في شعره فهو يبرهن بذلك أن الوزن والقافية لا تقفان في طريق التجربة الشعرية الصادقة. فله قصيدة مع تقفية كلمة الخاء فقلما يستخدسمه شعراء العرب والعجم في

أشعارهم العربية فهذه القصيدة يحوي عددا ضخما من العواطف كما هو العادة في أكثر قصائده فيقول: (٢٥)

بليت بداء ملاء كفى فكفّني عن الخير والله الحكيم صريخ
وعى به من جدّ في الطب والأسى فلم يجد نفعا مرهم ومروخ
منيت بما لم يمن مثلى بمثله وصرت كأني في الطعوم مسيخ

وهناك سمة أخرى لشعره، وربّما هي من تأثير أستاذه فضل الحق(٢٦)، أنّه يتردّد إلى المحسّنات البديعية فهو يراها من باب التجميل. والحقيقة أنّه يحافظ على رشاقة الأسلوب وجزالة كلماته في أكثر أشعاره.

وقصارى القول هناك معالم فنية مختلفة تشهد بفضيلته في الحقل الشعر العربي فقد اشرقت آفاق الثقافة العربية في شبه القارة بسطعه في رحابها. ساهم في شتى نواحي هذه الثقافة وأما الشعر فهو مزدخر بتنوع الموضوعات كما هو مرتفع برصانة اللغة وجدة الأسلوب والارتباط بنفسية الشاعر. ينفرد بين أبناء وطنه في التعبير عن ذاته وأمانيه أصدق تعبير إلى حدّما. تطور المديح النبوي على يديه وهذا الشعر هو خير شعره من حيث الفن والأسلوب اللهم إلا هناك بعض الزلات العقيدية. تمهر في تزيين شعره بالمحسنات البديعية تتبعا أسلوب أستاذه غير أنّ هذا التزيين لا يمسّ الحدود المشينة فلا غرو أن نعدّه من كبار الشعراء العربية في شبه القارة الهندية ولاغر وأن ينتهي إليه رئاسة الفنون الأدبية(٢٧)

الهوامش

١. عبد الحي الحسني، الأعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، المجلد الثالث، دار ابن حزم بيروت ١٩٩٩م ص ١٣٢٨
٢. سيّد سليمان الندوي، حيات شبلي، سلسلة دار المصنّفين (٦٦) ص(٨٠)،

أعظم كره،

٣. (http://www.alalukah. Net/literature_language/ 1176/) مقالة د. أورنك زيب الأعظمي، ديوان الفيض بتحقيق: د. ظهور أحمد أظهر، دراسة ونقد)

٤. الأعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، المجلد الثالث ص١٣٢٩

٥. "ديوان فيض الحسن السهارنبوري"\، تحقيق الأستاذ ظهور أحمد أظهر (المجمع العربي الباكستاني، لاهور)، ص ١٢٨

٦. مجلة القسم العربي العدد ١١ سنة ٢٠٠٤ م الصادر عن قسم اللغة العربية وآدابها جامعة بنجاب لاهور، ص:١٦٩ (مقالة محمد عبد الله أعوان " العلامة فيض الحسن السهارنبوري وخدماته العظيمة لنشر اللغة العربية في شبه القارة ".

٧. ديوان فيض الحسن السهارنبوري، ص ٩٨

٨. نفس المصدر ص٥٩

٩. نفس المصدر ص ٩٢

١٠. نفس المصدر ص ١١٩

١١. نفس المصدر ص٦١

١٢. مجلة القسم العربي العدد ١١ سنة ٢٠٠٤م الصادر عن قسم اللغة العربية وآدابها جامعة بنجاب لاهور، ص ١١٥ (مقالة د. قمر علي زيدي "المديح النبوي في الشعر العربي عند فيض الحسن السهارنبوري")

١٣. محمّد صدر الحسن الندوي، المدائح النبوية في الهند، معهد الدراسات الإسلامية، أورنك آباد ص ٢٦٤

١٤. مجلة القسم العربي العدد ١١ سنة ٢٠٠٤ م ص ١٦٩

١٥. نفس المصدر ص ١٦٩

١٦. الاعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، المجلّد الثالث ص ١٣٢٩

١٧. المدائح النبوية في الهند، ص ٢٥٩

١٨. ديوان فيض الحسن السهارنبوري، ص ٥٨
١٩. نفس المصدر ص ١٢٨
٢٠. نفس المصدر ص ١٢٨
٢١. نفس المصدر ص ١٢٩
٢٢. نفس المصدر ص ١٠٦
٢٣. نفس المصدر ص ١٠٦
٢٤. مجلة القسم العربي العدد ٢٣ سنة ٢٠٠٤ م الصادر عن قسم اللغة العربية وآدابها جامعة بنجاب لاهور، ص: (مقالة د. خالق داد ملك و د. سلمة فردوس سهول" دراسة عروضية إيقاعية لشعر فضل حق الخيرآبادي")
٢٥. ديوان فيض الحس السهارنبوري ص٥٦
٢٦. ٢٦.المدائح النبوية في الهند، ص٢٥٩
٢٧. الاعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، المجلّد الثالث ص ١٣٢٨

* * *